

Dr. David

الحيوية


Bibliotheca Alexandrina
0127338


مكتبة الاسكندرية

سلسلة
الحيوية

نقصة: ألدوس هكسلي
ترجمة: أوس زينة

تأليف: الدوس هكسلي

ابتسامة الجيوكوندا

ترجمة: أوس زينة

جميع الحقوق محفوظة للمترجم
الطبعة الأولى - ١٩٩٤
/٣٠٠٠/ نسخة

تصميم الغلاف:
رازميك هرتزيان
خطوط الغلاف والإهداء
بديع بطاح

التفيد الطباعي: دار المستقبل - دمشق - صالحة

هاتف: ٢٢٢٧٩٠٥ - ص.ب ٦٤٧٤

اللہ عزوجل

اے: ”میں نا جہت احمدی قاضی فیصلہ السلام

ضیاء لامعاً“

اے: میں کان لھا اور کبیر فیہ انجاز فیہ العمل

اور

الدوس هكسلي (١٨٩٤ - ١٩٦٣)

حظيت كتابات الدوس هكسلي المتعددة الجوانب باهتمام الكثير من القراء. وقد برع في كتابة القصة القصيرة فوق كل ذلك، وتشهد على ذلك قصصه التي تتمتع بحيوية فريدة. إلا أن سمعته تدهورت في السنوات التي تلت وفاته لأنه وعلى الأغلب كان قد انتقل بحرلته الأدبية خلال حياته من شاب متقد الذكاء ينتقل ضمن غموض أنيق إلى رجل اجتماعي ذي تأثير نفسي وإرهاق للحس وإحداث تخیلات بالغبطة والقوة ليصبح فيما بعد ذا نزعة صحفية. ولكم كان هذا غريباً عند رجل يملك ثقافة عالية ومحسوبة على فئة قليلة تفهمه - لقد كان هكسلي محفراً بالتناقضات فقد منعه إخفاقه في حلها من التطور ابتداءً من التألق إلى حالة من الجدية لكاتب أرفع شأنًا. وهو بالتأكيد ليس كما قيل عنه أو كما حظي بالثناء مثل "كومبتن بيرنيت".

إن محاكاة هكسلي البارعة له "فيربانك" قد أثارت عنده مع حبه للجمال، عند النزعات الزهديّة الأثمة، حب التنظير لمبدأ من

يقولون إن اللذة أو السعادة هي الخير الأوحده أو الرئيسي في الحياة، إضافة إلى كونه ناسكاً ضعيفاً. ويعتقد أن هكسلي قد تغير بشكل متطرف كونه قد بدأ ككاتب ممتع وانتهى ككاتب متصرف، وهذه ليست المسألة، فقد أشار "د.س. سافاج"، وهو أحد أكثر النقاد العصريين دهاء، إلى الاتجاه الأولي للمذهب المتعة عند البيرويين "Pyrrhonic Hedonism" والاتجاه المتأخر الصوفي - أساساً يعادل هذا رفضاً للأنا وأعمالها، متضمناً هذا الرفض: "الزمن" من أجل التوحد مع المطلق والذي ينشأ في نفي عام للكينونة. إن هكسلي الذي كتب تلك الكوميديات الحياتية المتألفة مثل:

(1921) - Crome Yellow

(1923) - Antic Hay

(1925) - Those Baren leaves

قد شعر بنفسه أنه بعيد عن تلك الحياة البدائية البسيطة مثلما كان بعيداً عنها عندما أصبح متصرفاً فيما بعد. فهو في بداياته لم يكن يشفق على شخصياته، كان يسخر من قرف جسدية الانسان لديهم، بعد ذلك تبخلى عن السخرية وتعلم الحنو والشفقة (رغم أنه غير قادر أبداً على تحقيق عنصر الدفء في رواياته) - لكنه بقي يرفض الجسدية. إن رواياته الثلاث الأولى تستحق بجدارة أن تكون خلفاً لمسرحيات "بن جونسون" الهزلية. فرواية "Those Baren Leaves" الأكثر جدلية بين رواياته هي أكثر جدلية ذلك أن شخصياتها التي يجب أن تكون لها حيويتها المستقلة، قد أصبحت

في الغالب أدوات نقل مباشر لأفكار هكسلي الشخصية عن العبيبة. إن رواية "Point Counter Point" التي كتبها عام ١٩٢٨ هي قصة مقنعة تدّين بشكل كبير لرواية "The Coiners" لـ "جيد" وهي تعتبر من أفضل أعمال هكسلي وأكثرها واقعية، على الرغم من أننا نلاحظ أن أكثر أحداثها إثارة تدور حول إحدى ربايات "بيتهرفن".

يفتقر هكسلي إلى الدفء كروائي، لكنه يمتلك الرقة والاحتشام، ورواية "Point counter point" تنجح إلى حد ما في إظهار التعاطف تجاه أولئك الناس الذين يطمحون لكنهم بكل بساطة يعيشون ويعانون. يقارن هكسلي نفسه بشخصية الروائي "فيليب كوارليز" ويجد في نفسه نقصاً: "كان يمضي كل حياته في فراغ غامض. لم يسمح لأي شخص... بالدخول إليه". وهو يضع نفسه بمواجهة "مارك رامبيون" الذي يؤمن بالذهب الحيوي، وفي الكتاب يتهم كثيراً على رامبيون. ويختتم كوارليز قوله باعتقاده أنه: "يجب أن يتواضع العقل ويعترف بحقوق القلب وبحقوق الأعضاء الجنسية..." إلا أن كل هذا ليس سوى تزييفاً لحقيقة الأمر. ويطلق "سافاج" على الرواية أحكاماً مثل "سخيفة"، "مكتوبة بشكل مزيف"، "صبيانية المفهوم والتقديم". ويمكن إضافة شيء لهذا الحكم، أو حتى لهذه التهمة، بأن هكسلي يكشف هنا أكثر من أي مكان آخر عن "الصبيانية المخبئة التي...تفسد فهمه للحياة". إن هذا النقد بالغ القسوة ورغم كل شيء. فهكسلي لا

يبدو صبياناً كروائي إلا عندما يقارن بلوريس في أفضل أعماله: إن رواية *Point Counter Point* تبدو أحياناً بعيدة كل البعد عن السخف. إن صدق القول ربما يصح أن نقول: إن جدية مشروع هكسلي واضحة في كل صفحة كتبها، ويدرك رامبيون هذا هنا تماماً مع بعض الشيء من الفهم، وعلى أية حالة فقد انهارت قوة هكسلي كروائي، فرواية "Eyeless In Gaza" التي كتبها عام ١٩٣٦ ورواية "After Many A Summer" عام ١٩٣٩ وكل ما تبعها هي روايات باعثة دون شك، إلا أنها كانت عبارة عن (Thesis - Fiction) ^(١) كتبت في غياب كامل للتأثير الإبداعي. إن رواية "Brave New World" هي عمل ذكي لكنها تعبر عن طوباوية نصف ساخرة إلى حد ما، وهي تدن بشكل أو بأخر لرائعة "زامبياتن" "We" التي تظاهر هكسلي بأنه لم يقرأها. و برأي الآخرين إن عودة هكسلي للتصوف هي أفضل: "حتى لقارئ حسن النية ومهتم بالصوفية، وغير مهجف بحقها، لا يبدو أبداً أنها أكثر من قالب واقعي". إن قالب القصة عند هكسلي يصور لنا نزعتنا نحو تحطيم الاعتقادات التقليدية. ويظهر إحساسه العميق بالمأساة.

ولعل الأفضل من بين كتب اللاحقة كتابان في الدراسات التاريخية هما: "Grey Eminence" عام ١٩٤١ و "The Devils of Loudun" عام ١٩٥٢ وتعتبر دراسته "النهر والذريعة" (Text and Pretext) - ١٩٣٢ - إحدى الأنتولوجيات الأكثر إثارة واستغراقاً

(١): طروحات خيالية م.

لنصرها، بالإضافة إلى "Letters" الممتعة والتي تحمل الكثير بين طياتها.

في القرن التاسع عشر فتن اللفظ الساحر لنساء "ليوناردو دافنشي" الكتاب. فقد تأمل غوتيه (١) والأخوان غونكور (٢) في الابتسامة الساحرة للمونا ليزا، ثم جاءت "ابتسامة الجيوكندا" التي كتبها هكسلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد نظر إلى جمالها على أنه قائم ويحمل مسحة شريرة، ثم استحضرها بمهارة "باتر" في مقطع شهير من مقال يدين بشيء ما لـ ل. ج. روسيتي "في قصيدته الأولى "سيدتنا، سيدة الصخور" وفي "السيدة ليزا" (التي تقدم صورة عامة عن النساء القديرات)، وأصدقاء لسحرها يرجع من خلال الشعر الرمزي إلى أن قام ألدوس هكسلي بمحاكاتها في قصته الشهيرة: "ابتسامة الجيوكندا".

وهنا في "ابتسامة الجيوكندا" يصور لنا هكسلي نظرتة اللاذعة عن الادعاءات الفنية والدجل الاجتماعي بشكل ساحر ومتهكم.

(١) تيوفيل غوتيه (١٨١١ - ١٨٧٢) شاعر فرنسي وروائي يعتبر من أركان المدرسة البرناسية. م

(٢) آدمون لويش أنطون دوغونكور (١٨٢٢ - ١٨٩٦) - وأخيه جول - كاتب فرنسي وضع مع أخيه مذكرات شهيرة. م

- "ستكون الآنسة سبينس هنا في الحال ياسيدي".

قال السيد هوتن دون أن يلتفت: "شكراً"

لقد كانت خادمة الآنسة سبينس قبيحة جداً، وكأنها تسعى لإظهار قباحتها عن عمد، تبدو له قبيحة بشكل مؤذٍ وإجرامي. حتى أنه لا يطيق النظر إليها إلا إذا استدعته الضرورة.

وبعد أن أغلق الباب وبقي لوحده، نهض السيد هوتن وبدأ يتجول في الغرفة، ينظر بعينين متأملتين إلى الأشياء المألوفة التي تحتويها. صور فوتوغرافية لتماثيل إغريقية وأخرى لميادين رومانية، رسوم ملونة للروائع الإيطالية المعروفة والمشهورة جداً.

- "ياعزيزتي جانيت المسكينة، يالها من وضاعة متصلة". لقد كان ذوقها الحقيقي موضحاً في ذلك اللون المائي لفنان رصيف دفعت له نصف كراون، و(٣٥)

شيان) للإطار. كم مرة سمع منها هذه القصة؟ وكم أسهبت في وصف جمال ذلك التقليد البارع لرسم زيتي؟ "فنان حقيقي في الشارع" ومن طريقة لفظها للكلمات تستطيع أن تسمع الحرف المضخم (ف) في كلمة "فنان". إنها تريد أن تجعلك تشعر وكأن جزء من عظمة ذلك الفنان قد أصابها عندما قدمت له ذلك النصف من الكراون من أجل نسخة من ذلك الرسم. كانت تكنّ ثناء لذوقها وفطنتها. "رسم مشهور وعبقري بنصف كراون، يالك من تعيسة يا عزيزتي جانيت".

توقف السيد هوتن برهة أمام مرآة مستطيلة صغيرة كي يحصل على صورة كاملة لوجهه. مرر بأصبع أبيض وظفر حسن التقليم فوق شاربیه. كان متموجاً وأصبح كما كان منذ عشرين سنة خلت. مازال شعره محافظاً على لونه، وليس هناك علائم للصلع بعد. ارتفاع في الجبين فقط، "شيكسيري" هذا ما فكر به السيد هوتن بابتسامة بينما كان يمسح الامتداد الناعم والمصقول لجهته.

- "ينتظر آخرون سؤالنا، أنت حر... وقع أقدام في البحر.. عظمة.. شكسبير، يجب أن تكون حياً في هذه

الساعة. لا، كان هذا ميلتون أليس كذلك؟ ميلتون، سيدة المسيح، لم يكن فيه ما يشبه السيدة، لقد كان مثلما يمكن أن تدعوه النساء بـ "رجل همام"، وهذا سبب جبهن له - لأن شاربِه كان متموجاً وأصبح، وأيضاً لأجل رائحة تبغهِ الزكية. ابتسم السيد هوتن ثانية. فقد كان يسره أن يمازح نفسه. سيدة المسيح؟ كلا، كلا، إنه مسيح السيدات. جميلة جداً، جميلة جداً، مسيح السيدات. تمنى وجود شخص ما ليحكى له تلك المزحة. يالك من مسكينة ياعزيزتي جانيت، لا يمكن تقدير ذلك يا حشرة!

استقام السيد هوتن وفرق شعره وتابع ارتجاله: ملعون هذا الميدان الروماني... لقد كره تلك الصور الموحشة وأدرك فجأة أن السيدة سينس في الغرفة تقف قرب الباب، فجفل كما لو أنه قد تورط في عمل شرير. لقد كانت تلك الظهورات الصامتة والشبحية واحدة من مواهب الآنسة سينس المميزة. ربما كانت هنا كل الوقت ورأته ينظر إلى نفسه في المرآة.

مستحيل! لكنها مائزال شبحية.

قال السيد هوتن مجدداً ابتسامته ومتقدماً فاتحاً يديه

للقائنها: "آه، لقد وهبتي مثل هذه المفاجأة".

كانت الأنسة سينس تبسّم أيضاً ابتسامتها الجيوكوندية، لقد دعاها منذ لحظة بذلك في لحظة تملق نصف استهزائي. أخذت الأنسة سينس تعقيقه بشكل جدي. وحاولت مراراً أن تتماشى مع مستوى ليوناردو. ابتسمت بصمت وهي تصافح السيد هوتن، كان هذا جزءاً من عمل الجيوكوندا.

قال السيد هوتن: "أتمنى أن تكوني بخير وتبدلين كذلك". كم هو غريب وجهها! ذلك الغم الصغير المدفوع إلى الأمام بتعبير الجيوكوندا كخرطوم صغير في وسطه فتحة دائرية، كأنها تريد الصغير. كان أنفها يشبه حمالة قلم تشاهد من المقدمة وهو أنف جميل حسن المظهر ومعقوف بشكل جيد. عيناها كبيرتان لامعتان وقامتان بالإضافة إلى الاتساع، البريق والفتامة، تبدوان وكأنهما مريضتان بشحوب العينين، وهناك احتقان غرضي منتشر عليهما، كانتا عينين رائعتين، لكنهما وقورتان وربما تقوم ريشة الفنان بخدعة جيوكوندية لكن العيون لا تتغير بجديتها أبداً. وعلاوة على ذلك كله فهناك زوج من الرموش المقوسة بوضوح والمرسومة بالأسود بشدة لتضفي جواً من القوة المدهشة،

تبدو وكأنها أغريينا^(١) من الحواجب فما فوق.

- "لقد فكرت بأن أطل عليك وأنا في طريقي إلى المنزل". ثم تابع يقول: "آه، جميل أن تكوني هنا ثانية" - أشار إلى المزهريات، إلى أشعة الشمس والخضرة خلف النوافذ:

- "إنه من الجمال بمكان أن تعودني إلى القرية بعد يوم من العمل المضني في المدينة".

أومأت له الآنسة سبنس التي جلست منذ وهلة كي يجلس بجانبها. إلا أنه قال: "كلا، لا أستطيع الجلوس، علي العودة لأرى حال إميلي المسكينة، لقد كانت متزعكة إلى حد ما هذا الصباح". لقد جلس على كل حال: "إنها تلك الرجفات لحي تيمس. إنها دائماً كذلك - نساء..."

قاطع وسعل، كأنه يريد إخفاء حقيقة أنه قد لفظ شيئاً. لقد كان على وشك أن يقول إن النساء اللواتي لديهن عسر في الهضم يجب ألا يتزوجن، لكن الملاحظة كانت قاسية،

(١) والدة نيرون روما. م

حتى إنه لم يؤمن بها حقاً. لقد كانت جنانيت سبنس تؤمن بالنار الأزلية وحجز الأرواح. "تمنت أن تكون صحتها جيدة بشكل كافٍ" ثم أضاف "سكي تراك على الغذاء غداً. هل تأتين؟ إفعلي؟"

ابتسم بشكل متواصل. "إنها تدعوني أنا أيضاً، تعرفين؟".

أسدلت عينيها وظن السيد هوتن بأنه قد اكتشف بعض الاحمرار في خديها. "إنها دعوة". ومسد شاربه.

- "سوف أكون راغبة بالزيارة إذا كنت تظن بأن إميلي بحال جيدة حقاً".

- "بالطبع. سوف تقدمين لها معروفاً. سوف تقدمين لكنينا معروفاً. في الحياة الزوجية رفقة ثلاثة أفضل من رفقة اثنين".

- "أوه، إنك تسخر"

إن السيد هوتن دائماً لديه رغبة ليقول "بالاوه ووه... ووه" حالما تقال تلك الكلمة الأخيرة إنها تحته أكثر من أي كلمة أخرى في اللغة. ولكنه بدلاً من النباح راح يحتاج

بسرعة: "كلا، كلا أنا أتكلم فقط عن حقيقة حزينة. فالواقع لا يصل دائماً إلى المثالية. بالفعل، أؤمن بذلك بحماس: المثالية في الزواج بين شخصين في توافق تام. أظن أن ذلك مفهوم. أنا متأكد من ذلك".

توقف بشكل ملفت ونظر إليها بمكر. عذراء في الثالثة والثلاثين، لكنها ماتزال نضرة، لديها سحرها. وهناك أيضاً شيء ما مبهم نوعاً ما في ماحولها - لم تجب الأنسة سبنس، لكنها تابعت الابتسام. كانت هناك أوقات كان يمل السيد هوتن فيها إلى حد ما من الجيوكتندا. وقف. ثم قال: "علي الذهاب بالفعل الآن. وداعاً، جيوكتندا غريبة".

أصبحت ابتسامتها أكثر شدة وتركيزاً في خرطوم ضيق إذا جاز التعبير. وأوماً السيد هوتن بانحناءة على طريقة القرن السادس عشر وقبيل يدها الممدودة. إنها المرة الأولى التي فعل فيها مثل هذا، ولم يبد ذلك مغيظاً.

- "سوف أترقب الغد"

- "حقاً؟"

. قبل السيد هوتن يدها مرة ثانية موافقاً ثم استدار ليذهب.

راففته الأنسة سبنس حتى الرواق سأله: "أين سيارتك؟"

- "لقد تركتها على بوابة الطريق"

- "سأتي لتوديعك"

"كلا، كلا"، كان السيد هوتن مازحاً لكنه مصمم.
"يجب ألا تقومي بفعل هذا. أنا ببساطة أمنعك".

عارضت الأنسة سبنس نائرة جيوكندا سريعة عليه:
"لكنني وددت لو أجيء".

مد السيد هوتن يده وكرر: "كلا"، ثم وإيماءة بدت على الأغلب قبلة، بدأ يركض أسفل الطريق برشاقة على قدميه، بخطوات وثابة كطفل. كان فخوراً بهذا الركض، بدا ذلك طفولياً مدهشاً تماماً. ومع ذلك، فقد سرّ لأن الطريق لم تعد طويلة. وعلى آخر منعطف، قبل أن يتوارى عن المنزل، ترنح ثم استدار. ماتزال الأنسة سبنس واقفة على الدرج، تبسم ابتسامتها، لوح بيده هذه المرة بلا ريب وبشكل صريح تماماً بحث مع النسيم قبلة باتجاهها ثم اندفع بقوة مرة أخرى في خيبه الجميل دائراً حول آخر نتوء داكن من الشجر. وحالما أصبح في منأى عن النظر خفف من عدوه ليصبح هرولة، وأخيراً إلى مشي. تناول مندبيله

وبدا يمسح رقبته داخل قبته. أية حماقة؟ هل وجد مثل هذا الحمق والفقر، يا عزيزتي جانيت سينس؟ أبدأ، إلا إذا كان هو كذلك. ولقد كان من غير ريب أكثر إيذاء منه حماقة، فالمشكلة كانت هي ذاته، المشكلة التي كانت أناساً آخرين...
وصل بوابة الطريق حيث كانت سيارته الكبيرة ذات اللون الملائم مركونة هناك.

- "إلى المنزل يا ثناب". لمس السائق قبته محيئاً .
وأضاف السيد هوتن بينما كان يفتح باب السيارة:
- "وتوقف كالمتعاد عند التقاطع في الطريق".
قال السيد هوتن معبراً عن الظلمة التي تنسل إلى الداخل: "حسناً".
- "أوه، تيدي بير^(١)، كم دهنراً بقيت؟".

قدمت هذه الكلمات عبر صوت عذب طفولي. لقد كان هناك تلميح ثقيل الوطأة للفظ كوكني^(٢) غير صحيح للحروف الصوتية.

(١) تيدي بير: بمعنى "يا ديدوي". م

(٢) الكوكني: نسبة إلى أحد شوارع لندن. م

أحنى السيد هوتن جسمه الكبير ووثب إلى السيارة
برشاقة حيوان يعدو إلى جحره.

قال وهو يغلق الباب: "أيمكنني فعل ذلك؟"
بدأت السيارة تتحرك.

- "إذن فقد اشتقت لي كثيراً طالما أنك وجدت الوقت
طويل جداً".

جلس في المقعد الخلفي المنخفض، فغلفه دفء عارم.
- "تيدي بـ... بـ... بـ... ير". ومع نهضة اطمئنان اتكأ
رأس صغير جميل على كتف السيد هوتن. فنظر شزراً على
الجانب من حوله مفتوناً، وجه طفولي كان وجهها.

- "هل تعلمين يادوريس أنك تبدين مثل صور لويز دو
كيرويل. ومرر بأصابه فوق الشعر الأجعد الكثيف.
فقالت دوريس من مكان بعيد: "من هي لويز دو كيرا -
كيفما كان ذلك؟"

- "لقد كانت، مع الأسف غير مشهورة. سنكون كلنا
(كانت) يوماً ما. بينما..."

غطى السيد هوتن الوجه الطفولي بالقبل. اندفعت

السيارة بهدوء. وكان ظهر مناب من خلال النافذة الأمامية جامداً بلا حركة، كظهر تمثال.

- "يداك" همست دوريس، "يجب ألا تلمسني، إنهما تصيباني بصدمة كهربائية".

لقد هام بها السيد هوتن لسذاجة كلماتها. "كم هو متأخر في وجودنا اكتشاف جسد الآخر!"

- "الكهرباء ليست بي، إنها بك". قبلها ثانية وهو يهمس باسمها عدة مرات: "دوريس، دوريس، دوريس. إنها التسمية العلمية للفأر البحري، كان يفكر هكذا وهو يقبل عنقها الممدودة إليه، كانت يبيضاء ممتدة كعنق ضحية تنتظر سكين الجلاد. كان الفأر البحري مسحوقاً بفرو قرصي الألوان، كم هو مختلف! أو كانت دوريس خياراً بحرياً، تقلب نفسها في لحظة خطر؟ كان عليه أن يذهب إلى نابولي ثانية، لكي يرى حوض الأحياء المائية فقط. تلك المخلوقات المائية كانت خرافية رائعة لا تصدق.

- "أوه، تيدي بير!" (المزيد من علم الحيوان؛ لكنه كان مجرد حيوان يري. يا لدعاياته الرضيعة البسيطة).

- "تيدي بير، أنا سعيدة جداً".
- قال السيد هوتن: "وأنا كذلك"
تُرى هل كان ذلك حقيقة؟
- "لكنني أرغب معرفة إن كان ذلك صحيحاً. قل لي
ياتيدي بير، هل هو صحيح أم لا؟"
- "آه يا عزيزتي هذا ما كنت أتمنى لو أعرفه في السنوات
الثلاثين الماضية".
- "كن جدياً ياتيدي بير. أريد أن أعرف إن كان ذلك
صواباً، إن كان علي حقاً أن أكون معك هنا وأن يحب
بعضنا الآخر، وأتكهرب كلما لمستني".
- "صحيح، حسناً، هذا جيد بالتأكيد، إن تحصل على
صدمة كهربائية بدلاً من الكبت الجنسي.. فرويد حقيقي،
الكبت من الشيطان".
- "أوه أنت لا تساعدني. لماذا لا تكون جدياً أبداً؟ لو
أنك تعلم كيف أكون تعيسة، عندما أفكر أن ذلك ليس
صواباً، ربما، أنت تعلم، يوجد جحيم، وماشابه ذلك. أنا لا
أعلم ذلك. مرات أفكر بأن أتوقف عن حبك"، ثم سأل

السيد هوتن وكان واثقاً من قدرة إغوائه وشاربيه:

- "لكن هل تستطيعين؟"

- "كلا ياتيدي بير، تعلم بأنني لا أستطيع، لكنه يمكنني الهرب، أستطيع الاختباء منك، وأغلق على نفسي وأمنعها من القدوم إليك".

حضنتها بقوة. - "ما أسخف هذا!"

- "أوه يا عزيزي. أمل أن يكون ذلك صواباً. وتكون هناك أوقات لا أهتم فيها إذا كان الأمر غير ذلك".

كان السيد هوتن متأثراً. فهو يملك عاطفة وقائية معينة لهذه المخلوقة الصغيرة. وضع خده على شعرها وهكذا تشابكا، جلسا في سكونية، بينما كانت السيارة، تترنح وتنحدر قليلاً وبينما تزداد سرعة بدت منسحبة في ذلك الطريق الأبيض والخواف تنثر الغبار باتجاهها.

- "مع السلامة، مع السلامة"

تحركت السيارة، جمعت سرعتها، وتلاشت خلف منحني، وتركت دوريس واقفة قرب معلّم على التقاطع، ماتزال تشعر بدوار ويوهن مع تراخ نتيجة تلك القبل واللمسة

المكهربة لتلك اليدين اللطيفتين. كانت تحتاج لأخذ نفس عميق، كي ترفع نفسها بنأى، قبل أن تكون قوية بشكل كاف لتبدأ مشوار العودة. كانت تحتاج لنصف ميل كي تختبر الأكاذيب الضرورية. وجد السيد هوتن نفسه ضحية ملل مرعب. كانت السيدة هوتن مستلقية على أريكة في مخدعها تلعب الورق، وعلى الرغم من ذلك المساء من حزيران فإن حظياً كان يشتعل في الموقد. وبمقرته الملبس أسود "بوميرانيانى" توهنه الحرارة وتعب الهضم، ينام أمام الوهج. سأل السيد هوتن وهو يدخل الغرفة:

- "أف! أليست الحرارة زائدة قليلاً هنا؟"

- "أنت تعلم أنه علي أن أبقى في الدفء، يا عزيزي". بلما الصوت متقطعاً لامرأة موشكة على البكاء.

- "لقد أصبح شديدة التأثر بالبرد".

- "أتمنى أن تكوني بصحة جيدة هذا المساء".

- "ليس تماماً، أنا خائفة".

صمتت الحادثة بينهما. وقف السيد هوتن منحنيّاً على دفة الموقد. نظر إلى الكلب القابع عند قدميه، وبقدمة قدمه

اليمنى كوره وحك صدره الأبيض المنقط. مما جعل
هذا المخلوق يجثم بنشوة كسولة. تابعت السيدة هوتن لعب
الورق. وصلت إلى طريق مسدود. فبدلت مكان واحدة من
الورقات واستعادت أخرى، ثم تابعت اللعب. لقد كانت
كثيراً ماتلعب الورق وحدها.

- "يظن الدكتور ليارد أنه علي الذهاب هذا الصيف إلى
لاندريندود ويلز".

- "حسناً اذهبي يا عزيزتي بكل تأكيد".

كان السيد هوتن يفكر بأحداث ما بعد الظهر: كيف
انقاد هو ودوريس إلى الغابة تركا السيارة لتتظارهما تحت
ظلال الأشجار، صعدا معاً تحت أشعة الشمس إلى ذلك التل
الكلسي.

- "يوجب علي شرب الماء بكثرة من أجل كبدي،
ويظن أن علي إجراء مساج ومعالجة كهربائية أيضاً".

طاردت دوريس وقبعتها بيدها، أربع فراشات زرقاء
كانت ترقص مع بعضها حول وردة شيخ الربيع بحركة تشبه
رفرفة النار الزرقاء. تندفع النار الزرقاء وتتحول إلى شرارات

مبعثرة، طاردها، وهي تضحك وتصرخ مثل طفلة.

- "أنا متأكد من أنها ستتفعلك يا عزيزتي".

- "كنت أتساءل إذا كنت ترغب في الذهاب معي يا عزيزي".

- "لكنك تعلمين أنني مغادر إلى اسكوتلندة في نهاية هذا الشهر".

نظرت إليه السيدة هوتن مستعطفة وقالت: "إن التفكير بهذه الرحلة يشبه الكابوس. لا أعلم إن كنت أستطيع تدبير أمري. وأنت تعلم بأنني لا أستطيع النوم في الفنادق. بالإضافة إلى الأمتعة وكل الإرهاقات الأخرى... لا أستطيع الذهاب وحدي".

قال السيد هوتن بنفاذ صبر: "ولكنك لن تكوني وحدك. ستكون خادمتك بصحبتك".

كان يُسحب ببطء من ذكرى أشعة الشمس فوق اللؤلؤ والفتاة السريعة الضاحكة، إلى تلك المرأة المريضة الشاكية والغرفة الممرضة المدفأة بكثرة.

- "لا أظن أنني قادرة على الذهاب".

- "لكنه يجب أن تذهبي يا عزيزتي طالما قال لك الطبيب ذلك بالإضافة إلى أن التغيير سوف يفعلك".

- "لا أظن ذلك".

- "لكن ليبارد بظن ذلك، ويعلم عما يتكلم".

- "لا لأستطيع مواجهة ذلك، إنني ضعيفة جداً. لا أستطيع الذهاب وحدي".

تناولت السيدة هوتن منديلاً من محفظتها القماشية السوداء ووضعتة على عينيها.

- "هراء، يا عزيزتي يجب أن تبذلي جهدك".

- "أفضل البقاء هنا والموت هنا". أصبحت تبكي بشكل جدي الآن.

- "يا إلهي كوني عاقلة الآن. اسمعي، رجاء". اكتفت السيدة هوتن بالتنهد بعمق أكثر. "أوه ماذا على المرء أن يفعل؟" - هز كتفيه وخرج من الغرفة.

كان السيد هوتن مدركاً أنه لم يتصرف بشكل لائق، لكنه لم يستطع فعل شيء حيال ذلك. قديماً في فتوته اكتشف أنه لم يكن يشعر بالشفقة على الفقراء، الضعفاء

والمرضى والمعاقين، بل كرههم بالفعل. مرة، قبل التخرج، قضى ثلاثة أيام في بعثة إلى إيست إند (East End). وعاد مشحوناً باستياء عميق لا يمكن استئصاله. وبدلاً من الشفقة راح يشتمز من التعساء. لم يكن هذا شعوراً لائقاً، وهو يعرف ذلك، وكان يخجل منه في البداية. وقرر أخيراً أن ذلك كان مزاجياً، ولا يمكن اجتنابه، ولم يشعر بها بأي وخز ضمير. لقد كانت إميلي جميلة وصحيحة عندما تزوجها. كان يحبها في ذلك الوقت. لكن الآن - هل هو ذنبها أن تكون هكذا؟ تناول السيد هوتن غذاءه وحيداً. الطعام والشراب جعلاه أكثر خيرية مما كان قبل الغذاء. فدخل إلى غرفة زوجته لإجراء بعض الإصلاحات في مشهده الغاضب وعرض أن يقرأ لها. لقد كانت متأثرة، فقبلت عرضه بكل امتنان، واقترح السيد هوتن الذي كان فعوراً بلهجته قراءات فرنسية مسلية.

تكلمت السيدة هوتن عن لغة راسين كأنها تتكلم عن صحن من البازلاء: "فرنسية؟ إنني مولعة بالفرنسية".

اندفع السيد هوتن إلى المكتبة وعاد يحمل مجلداً أصفر، وبدأ يقرأ. وقد استهلك الجهد المبذول من أجل اللفظ

الصحيح كل اهتمامه. وكم كانت جيدة لكتته، هذه اللكنة التي بدت قادرة على تحسين خاصية الرواية التي كان يقرأ. ومع نهاية خمس عشرة صفحة منه أثاره صوت جلبي. رفع بصره، لقد كانت السيدة هوتن تغط بالنوم. جلس هادئاً للحظة، ينظر بحذر إلى الوجه النائم. لقد كانت جميلة مرة منذ زمن بعيداً. مشهدها، ذكرياتها، أعادته إلى عاطفة أقوى، ربما، من أي عاطفة أحسها من قبل أو بعد. هي الآن هزيلة وشديدة النحول. جلدها متهدل فوق عظام خديها، وقصبة أنفها الحاد التي تشبه الطائر. العينان المغلقتان أسبلتا في محاجر عظمية عميقة. والقنديل يضرب وجهها من الجانب مؤكداً الضوء ومظلاً الفجوات والتواءات. لقد كان وجه مسيح ميت المعنويات.

"Le squelette était invisible

Au temps heureux de l'art païen."^(١)

ارتعش السيد هوتن قليلاً ثم غادر الغرفة على رؤوس أصابعه.

(١) "كان الهيكل العظمي غير مرئي في الزمن السعيد للفن الوثني". م

وفي الأيام التالية نزلت السيدة هوتن إلى مائدة الغداء. لقد أصابها خلال الليل خفقان قلب مزعج، لكنها الآن تشعر بتحسن. بالإضافة إلى كونها تريد القيام بواجب ضيفتها، أصغت الآنسة سينس إلى شكواها عن لاندريندود ويلز، فكانت مسرقة بالشفقة، سخية بالنصح. تقول كل شيء بحدة. انحنيت إلى الأمام قاصدة الكلام، وكم دفع، أطلقت كلماتها.. وفجأة فرغت الشحنة من روحها وراحت الكلمات تتر في مأسورة فمها الضيق. كانت مدفعاً آلياً تفعم ضيفتها بالشفقة. ولقد خضع السيد هوتن أيضاً لمثل هذا القصف بالكلمات، وغالباً ما كان كلامها عن شخصية أدبية أو فلسفية، عن مايرلنك^(١)، الآنسة بيرغسون^(٢) أو ويليام جيمز. واليوم أصبحت القذائف طيبة. فقد تكلمت عن الأرق وأسهب في فضائل العقاقير غير المؤذية والاختصاصيين المفيدين. ومن خلال القصف تفتحت السيدة هوتن كزهرة تحت الشمس!

(١) موريس مايرلنك: شاعر وكاتب مسرحي بلجيكي (١٨٦٢ -

١٩٤٩). منح جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١١ م.

(٢) هنري بيرغسون: (١٨٥٩ - ١٩٤١): فيلسوف فرنسي منح جائزة

نوبل في الآداب لعام ١٩٢٧ م.

نظر السيد هوتن بهدوء. لقد أثارت نظارة جانيت سينس في نفسه فضولاً لا ينتضب. لم يكن رومانسياً كفاية ليتخيل بأن كل وجه يخفي أسرار داخلية من الجمال أو الغرابة، حيث إن لغو كل امرأة يشبه بخاراً معلقاً فوق خلجان غامضة. زوجته مثلاً، ودوريس! لم تكونا أكثر مما تبديان. أما جانيت سينس فالأمر مختلف نوعاً ما. فهنا يمكن أن يتأكد من وجود نوع من الوجوه الغريبة خلف ابتسامة الجيوكتندا والحراجب الرومانية. السؤال الوحيد كان: "ماذا كان ذلك بالضبط؟" هذا ما لم يستطع السيد هوتن أن يكتشفه أبداً.

- "لكن ربما لا يكون من الواجب عليك الذهاب إلى لاندريندود بعد كل هذا"، علقت الآنسة سينس وأضافت:

- "إذا تحسنت حالتك بسرعة فإن الدكتور ليبارد سيعفيك من ذلك".

- "هذا ما أمل. حقاً، إنني أفضل اليوم وأشعر بتحسن فعلاً".

شعر السيد هوتن بالخجل. فهو لم يكن يشفق عليها وربما كان هذا ما منعها من الشعور بالتحسن. لكنه كان يعزّي نفسه باعتبار أن ذلك لم يكن سوى حالة شعور وليس

فهي كونها أفضل. فالشفقة لا تشفي كبداً مريضة أو قلباً ضعيفاً.

- "يا عزيزتي، لو كنت مكانك لما أكلت من ذلك العنب الأحمر". ثم أضاف بقلق:

- "أنت تعلمين أن ليبارد قد منعك من كل شيء ذي قشرة وبذرة".

- "ولكنني مولعة بها بشدة". قالت ذلك السيدة هوتن معارضة ثم تابعت: "ثم إنني أشعر بتحسن كبير اليوم".

قالت الآنسة سبنس ناظرة إليه أولاً: "لا تكن قاسياً". ثم إلى زوجته: "دع المريضة البائسة تحصل على ما تتمنى، سيفيدها ذلك". مدت يدها إلى يد السيدة هوتن وربت عليها مرتين أو ثلاث بحنان.

- "شكراً يا عزيزتي". ونهضت السيدة هوتن إلى العنب.

- "حسناً لا تلوميني إذا أمرضك ذلك ثانية".

- "وهل لمتك في حياتي يا عزيزي؟"

- "ليس هناك ما تلوميني لأجله"، وأضاف مازحاً: "أنا

الزوج المثالي".

جلسوا في الحديقة بعد الغداء. وراحوا ينتظرون من خلال
بقع الظل تحت شجرة سرو عبر المدى الممتد اخضراراً، حيث
تبدو رياض الزهر براقاً أخاذة.

تنهد السيد هوتن بعمق من هذا الدفء والهواء العطر
وقال: "جميل أن نكون أحياء".

رددت زوجته: "فقط أن نكون أحياء!" ثم مدت يداً
شاحبة معقودة برباط إلى أشعة الشمس.

أحضرت الخادمة القهوة، الركوة الفضية والفناجين
الصغيرة الزرقاء قد وضعت على طاولة قرب مجموعة من
الكراسي. هتفت السيدة هوتن: "أوه، أدويتي!"

- "اركضي وابحثي عنها يا كلارا، هل تفعلين؟ الزجاجاة
البيضاء على طاولة البوفيه".

- "أنا ذاهب"، قال السيد هوتن: "سأذهب وأبحث عن
سيجار على أية حال".

واندفع إلى المنزل. وعلى العتبة استدار للحظة. ليشاهد
الخادمة عائدةً عبر الأزهار. زوجته جالسة باستقامة على
كرسيها الخشبي، منهمكة في فتح مظلتها. وكانت الآنسة

سبنس متكئة على الطاولة، قصب القهوة. وعبر إلى ظلمة المنزل الباردة.

استفسرت الأنسة سبنس: "هل تريدان سكرًا في قهوتك؟"

- "نعم، من فضلك، لتكون حلوة. سأتناولها بعد الدواء لتزيل طعمه".

أحنت السيدة هوتن ظهرها على الكرسي، مسدلة المظلة على عينيها كأنها تريد أن تغلق مجال رؤية عينيها للسماء المشتعلة. خلفها كانت الأنسة سبنس تصدر صلصلة ناعمة بفناجين القهوة.

- "لقد وضعت لك ثلاث ملاعق ممتلئة. علّها تزيل مذاق الدواء، وهاهو يأتي".

ظهر السيد هوتن يحمل كأساً من الخمرة نصف ممتلئة بسائل باهت. وقال وهو يناولها إلى زوجته: "إن رائحتها شهية".

- "هذه فقط النكهة". واحتستها ببلعة واحدة، مرتعدة، ثم كشرت.

”- أف، إنها مقرفة أعطني قهوتي”.

ناولتها الآنسة سبنس الفنجان، فرشفت منه. ”لقد جعلتها مثل الشراب لكنها جيدة جداً بعد هذا الدواء الشنيع”.

بعد الساعة الثالثة والنصف شكت السيدة هوتن بأنها لم تعد تشعر بالراحة كما كانت من قبل إضافة إلى كونها أصبحت مرهقة، ودخلت إلى المنزل كي تستلقي في فراشها. كاد زوجها أن يقول شيئاً عن ذلك العنب الأحمر، لكنه ضبط نفسه، إن إحساس الانتصار في عبارة ”لقد قلت لك” مكسب بخس. وعوضاً عن ذلك بدا مشفقاً وأعطاهما يده ليساعدها في الدخول إلى المنزل.

- ”إن الراحة سوف تجعلك أفضل”. وتابع يقول:
”بالمناسبة، سأعود بعد العشاء”.

- ”لكن لماذا، أين ستذهب؟”

- ”لقد وعدت بأن أذهب إلى بيت جونسن هذا المساء، سوف تناقش ذكريات الحرب أنت تعلمين”.

- ”أوه، أتمنى أن لا تذهب”. كانت السيدة هوتن على

وشك البكاء: "ألا تستطيع البقاء؟ لا أحب البقاء وحدي في المنزل".

- "لكن ياعزيزتي لقد وعدته منذ أسابيع". لقد كان مريكاً بالنسبة له أن يكذب مثل هذه الكذبة. "والآن يجب أن أعود وأهتم بالآنسة سبنس". قبلها على جبينها وعاد ثانية إلى الحديقة. استقبلته الآنسة سبنس منفعلة مشتاقة.

- "إن زوجتك مريضة بشكل مخيف"، وانفعلت أمامه.

- "لقد ظننت أنها ستتهج كثيراً عندما تأتئين".

- "لقد كان ذلك منفراً تماماً، منفراً تماماً. كنت أراقبها عن قرب". وأضافت: "بقلب منهار في مثل هذه الحالة واستيعاب محطم - نعم، محطم - فإن أي شيء يمكن أن يحدث".

- "إن ليبارد لم يأخذ هذه السوداوية من معاينة صحة إميلي المسكينة". وأمسك السيد هوتن البوابة التي تقود إلى الطريق من الحديقة، كانت سيارة الآنسة سبنس تقف أمام الباب الخارجي.

- "ليبارد ليس سوى طبيب عام. يجب أن ترى طبيباً مختصاً".

لم يستطع أن يحجم نفسه عن الضحك: "إنك تملكين هراية رهيبة بالاختصاصيين".

أشارت الآنسة سبنس بكفها معارضة: "أنا جادة في ما أقول. أظن أن إميلي المسكينة في حالة بالسة جداً. ويمكن أن يحدث أي شيء في أية لحظة". قادها إلى السيارة وأغلق الباب. أدار السائق المحرك وصعد إلى مكانه مستعداً للانطلاق.

- "هل أقول له انطلق؟" لم يكن لديه رغبة في متابعة الحديث. انحنت الآنسة سبنس إلى الأمام وأطلقت جيوكوندا باتجاهه. "تذكر أنني متوقعة مجيئك لتراني ثانية في وقت قريب". ابتسم بشكل تلقائي، وقام بجلبة لطيفة، وبينما كانت السيارة تتحرك إلى الأمام لوح بيده. كان سعيداً لبقائه وحيداً.

انطلق السيد هوتن بسيارته بعد عدة دقائق. كانت دوريس تنتظره على التقاطع. تناولا العشاء معاً في فندق على الطريق يبعد عشرين ميلاً عن منزله. لقد كانت واحدة من تلك الوجبات السيئة والمكلفة التي تطبخ في فنادق البلدة

يعتادها سائقو الدراجات. قززت هذه الوجبة نفسه لكن دوريس استمتعت بها. إن دوريس دائماً تستمتع بالأشياء. طلب السيد هوتن شمبانيا ليست من صنف جيد. كان يتمنى لو أنه قضى هذه الأمسية في مكتبته.

وعندما بدأ طريق العودة كانت دوريس ثملة قليلاً وحنونة بشكل مفرط. كانت الظلمة حالكة خارج السيارة. ومكنهما النظر إلى الأمام من وراء الشكل الثابت لمناب، من رؤية عالم ضيق يراق من الأشكال والألوان التي تُرى بمساعدة الأنوار الكهربائية.

وعندما وصل السيد هوتن إلى منزله كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. قابله الدكتور ليبارد في البهو. كان رجلاً صغيراً ويداه رقيقتان وملامحه مرتبة بشكل حسن حيث تشبه إلى حد ما ملامح الأنثى. عيناه البتيتان كانتا كبيرتين وحزبتين. كان معتاداً على تمضية وقت طويل يجلس على حافة السرير بجانب مرضاه، الحزن يطل من عينيه ويتكلم بحزن، بصوت منخفض عن أشياء لا تهم على وجه الخصوص. تنبعث منه رائحة المخدر ولاشك، لكنه بنفس الوقت لطيف وفاتن بشكل متفرد.

قال السيد هوتن مندهشاً: "ليبارد، أنت هنا؟ هل زوجتي مريضة؟"

- "لقد حاولنا البحث عنك في وقت مبكر"، تابع الصوت الناعم الكتيب: "كان متوقفاً أنك في بيت السيد جونسن، لكنهم لم يعلموا أي شيء عنك". أجاب السيد هوتن بنزق: "لا، فقد حدث ما عاقني، عطل في السيارة". كم هو متعب أن يتورط المرء في كذبة.

- "كانت زوجتك تريد رؤيتك بالحاح".

- "حسناً أستطيع رؤيتها الآن". وتحرك السيد هوتن باتجاه الدرج. فمد الدكتور يده فوق يد السيد هوتن: "أخشى أن يكون قد فات الأوان؟" وبدأ يتحسس بارتباك ساعته التي لم تكن لتخرج من جيبيه.

- "لقد قضيت السيدة هوتن منذ نصف ساعة خلت".

بقي الصوت في نعومته، وحزن العينين لم يتعمق. تكلم الدكتور ليبارد عن الموت كأنه يُراد الكلام عن سياق الكريكات المحلي، كل الأشياء متماثلة في عدم الجدوى ومتماثلة في البؤس.

وجد السيد هوتن نفسه يفكر بكلمات جانيت سينس:
"في أي لحظة، في أي لحظة". لقد كانت محقة تماماً.

سأل السيد هوتن: "ماذا حدث، ماذا كان السبب؟"

وضح الدكتور ليبارد: "لقد كان فشلاً في القلب نتج
عن نوبة عثيفة من الغثيان، سببها تناول شيء ذي طبيعة
قشرية.

سأل السيد هوتن: "عنب أحمر؟"

- "مرجح جداً. لقد كان هذا ثقيلاً جداً على القلب.
كانت مصابة بمرض صمامي مزمن. لقد انهار شيء ما نتيجة
التوتر، لقد انتهى كل شيء. كان بإمكانها تجنب كثير من
الألم".

كان الجنرال غريكو يقول وهو يقف، وقبعته بيده، تحت
ظل مدخل مدفن الكنيسة ماسحاً وجهه بمنديل: "من
المؤسف أنه كان عليهم اختيار يوم مباراة إيتون مع هارو من
أجل الجنازة".

سمع السيد هوتن هذه الملاحظة، وبصعوبة كبج رغبة
في إنزال عقوبة جسدية مؤلمة بالجنرال، وكان سيسره توجيه

ضربة إلى ذلك الأعمى العجوز في منتصف وجهه الأحمر الكبير..

أليس هناك احترام للموتى؟ ألا يهتم أحد؟ لم يكن يكثر كثيرًا للفكرة، دع الموتى يدفنون موتاهم. ولكن هنا، بجانب القبر، وجد نفسه ينشج بالفعل. "إميلي البائسة" لقد كانا سعيدين معاً، وهاهي الآن تقبع في قعر حفرة بعمق سبعة أقدام وهنا كان غريكو يشكو من أنه لم يستطع الذهاب لمشاهدة مباراة إيتون وهارو.

نظر السيد هوتن حوله إلى الأشكال السوداء التي كانت تنجرف يبطء خارج المقبرة باتجاه أسطول من السيارات والدراجات المتجمعة على الطريق خارجاً أمام خلفية المقبرة المشرقة بعشب حزين. بدت الورود والأوراق المزركشة بمظهر غير طبيعي وبغرابة مريضة. وقد سره التفكير بأن كل أولئك الرجال سيصبحون لاحقاً أمواتاً أيضاً.

جلس في ذلك المساء متأخراً في مكتبته يقرأ عن حياة ميلتون. لم يكن هناك سبب خاص لاختيار ميلتون بالذات، إنه الكتاب الذي وقع في يده أولاً، هذا كل ما في الأمر، ولم يته من قراءته إلا بعد منتصف الليل. انتصب واقفاً فتح

النوافذ الفرنسية، وخطاً خارجاً باتجاه المصطبة المرسوفة. كان الليل هادئاً وصافياً. نظر إلى النجوم وإلى الفتحات فيما بينها، وأسدل عينيه باتجاه المرج المعتم وورود الحديقة عديمة اللون، وتركهما تجولان في المنظر البعيد، السواد والرمادي تحت وجه القمر.

بدأ يفكر بنوع من العنف المضطرب. كانت هناك النجوم والليل. عظيمة، نبيلة. لكن هل يوجد فرق حقاً بين النبيل والحقير؟ ميلتون، النجوم، الموت ونفسه، نفسه. الروح، الجسد، الطبيعة الأعلى والدنيا. ربما هناك شيء فيها، بعد كل ذلك لميلتون رب بجانبه، واستقامة. ماذا كان لديه؟ لاشيء البتة، لاشيء. لم يكن هناك غير نهدي دوريس الصغيرين. ماذا كانت الميزة في كل ذلك؟ ميلتون، النجوم، الموت، وإميلي في قبرها. دوريس ونفسه، دائماً نفسه...

أوه لقد كان كائناً لا طائل منه ومقرف. كل شيء يقنعه بها. لقد كانت لحظة كهيبة. تكلم بصوت عالٍ: "أنا سوف.. أنا سوف..." لقد كانت جلبة صوته في الظلمة مريعة، بدا له وكأنه قد أقسم يميناً شيطانيةً تلزم حتى الآلهة. "أنا سوف.. أنا سوف..."

لقد كانت أياماً من سنة جديدة وذكريات سنوية كئيبة في الماضي، عندما أحس بتفس الندم وسجل قرارات مشابهة. لقد اضمحلت كلها، كل القرارات، مثل الدخان، إلى لا شيء. لكن تلك كانت لحظة أعظم وقد لفظ يمناً مرعبة أخرى. في المستقبل سيكون ذلك مختلفاً. نعم سيعيش بتعقل، ويصبح مجداً، ويكبح شهواته، و سكرس حياته لبعض الأغراض الطيبة. كان ذلك مقروءاً، ويجب أن يكون هكذا.

وجد نفسه بالممارسة بضيق صياحاته في أمور الزراعة، يجول مع وكيل المزرعة ويرى أن أرضه قد زرعت بأفضل طريقة عصرية، السلوات^(١) والأسمدة، الحصاد المستمر، وكل ذلك. وبقية النهار يجب أن يكرس للدراسة الجديدة. كان هناك ذلك الكتاب الذي عزم على كتابته منذ أمد: "أثر الأمراض على الحضارة".

ذهب إلى سريره ذليلاً منسحق الفؤاد، لكنه أحس أن

(١) السلوة: مبنى اسطواني خشبي أو إسمنتي عالي محكم الإغلاق يحفظ فيه علف الحيوان.

الرحمة قد دخلت إليه. نام لسبع ساعات ونصف، استيقظ ليجد الشمس مشرقة براقعة. لقد تحولت انفعالات المساء بفضل الراحة التي تلقاها الليلة السابقة إلى بهجة مألوفة. واستغرقت منه بضع دقائق حتى أفاق عندما تذكر قراراته، وقسمه الذي لا تُنتهك حرمة. ميلتون والموت يَدَوْنَ نوعاً ما مختلفين تحت أشعة الشمس. أما النجوم فلم تعد هناك، والقرارات كانت جيدة، حتى في أوقات النهار يمكنه رؤية ذلك. سرج حصانه بعد الفطور وامتطاه حول المزرعة مع الوكيل. بعد الغذاء قرأ لثوثيديديس^(١) عن الوباء في أثينا. وفي المساء كتب بعض الملاحظات عن الملاريا في جنوب إيطاليا. وبينما هو يخلع ثيابه تذكر أنه توجد حكاية في كتاب سكيبتون الساخر عن المرض المقلق. وفكر بأن يكتب ملاحظة عنه إذا استطاع إيجاد قلم رصاص.

في الساعة السادسة صباحاً من حياته الجديدة وجد السيد هوتن بين رسائله مغلفاً معنوئاً بخط مميز مألوف كان

(١) Thucydides (٤٦٠ - ٤٠٠ ق.م) : مؤرخ أثيني - يعتبر من

أهم المؤرخين اليونان على الإطلاق. م

يعرف أنه من دوريس. فتحة، ثم بدأ يقرأ. لم تكن تعرف ماذا تقول، فالكلمات لم تكن ملائمة. زوجته تموت بتلك الطريقة، وبشكل مفاجيء هكذا - كان ذلك مرعباً. تنهد، لكن اهتمامه انتعش نوعاً ما وهو يتابع القراءة:

"الموت مخيف جداً، لم أفكر به أبداً عندما أقدر أن أحول دونه. لكن إذا حدث شيء مثل هذا، أو عندما أشعر بالمرض أو بالوهن فلا يمكنني منع نفسي من تذكره ووجوده بالقرب مني. وأفكر بكل الأعمال الشريرة التي قمت بها، أيضاً عنك وعني، وأحارّ ماذا سيحدث، وأنا خائفة جداً. إنني وحيدة جداً ياتيدي بير، وحزينة جداً ولا أعرف ماذا أفعل.. لا أستطيع التخلص من فكرة الموت، إنني بائسة جداً وعاجزة من دونك. لم أكن أعني الكتابة لك، وإنما عنيت الانتظار حتى تكون خارجاً في الصباح ويمكنك المجيء وترائي ثانية، لكنني كنت وحيدة وتعيسة ياتيدي بير، كان يجب أن أكتب. لم أستطع إيقاف ذلك. سامحتني فأنا أريدك كثيراً جداً، ليس لي في هذه الدنيا أحد سواك. أنت طيب جداً ولطيف ومتفهم أيضاً ولا يوجد مثيلك. لن أنسى أبداً كيف كنت طيباً ولطيفاً معي، وأنت ذكي جداً وتعرف الكثير. لا أستطيع فهم عدم مجيئك أبداً لتعبرني أي

اهتمام، إنني بليدة جداً وغبية، إنك تحبني وتودني أكثر بقليل.
أليس كذلك ياتيدي يير؟".

شعر السيد هوتن بالعار والندم. إذ يُظن به هكذا، يجعل
كونه أغوى الفتاة. لقد كان ذلك كثيراً جداً. كان ذلك
جزءاً من خلعة بلهاء. أهله، معنوه: لا توجد طريقة أخرى
لوصفه. وبعد أن قال هذا واستخلص قليلاً من المتعة فيه راح
يجمع كل الأشياء مع بعضها. راح الملل ينفذ إلى أعصابه
بدلاً من التسلية.

مرة صدق نفسه أنه يستمتع، لكن لكي تستمتع يجب
أن تطبق عملية معينة من العقل، اختيار مقصود للمتعة
المعروفة، ورفض الآلام المعروفة. تم هذا من دون تفكير، لكن
ضده. لأنه كان يعلم جيداً وبشكل مسبق، أنه لا يوجد
اهتمام أو متعة في انتشاره من هذه القضايا الخسيسة. وكلما
وافته لهفة غامضة يخضع لها، متورطاً مرة أخرى في غباوته
القديمة. كانت هناك ماجي خادمة زوجته القديمة وفتاة
المزرعة إيديث والسيدة برنغل، النادلة من لندن، وأخريات،
كان كل هذا تافهاً ومملأً. علم أن ذلك سوف يكون، دائماً
هو يعرف. وفوق ذلك، وفوق ذلك... التجربة لا تعلم.

أيتها الفقيرة دوريس الصغيرة سيكتب لها بلطف،
وبأريحية، لكنه لن يراها ثانية.

جاءت خادمه لتخبره أن حصانه قد سُرح وأصبح جاهزاً
بانتظاره. فامتطاه وانطلق.

في ذلك الصباح بدا وكيل المزرعة العجوز مضطرباً أكثر
من العادة.

وبعد خمسة أيام كانت دوريس والسيد هوتن يجلسان
معاً على رصيف في سودند ترتدي دوريس الموسلين الأبيض
مطرزاً عليه بالوردي وتبدو مفعمة بالسعادة، السيد هوتن
قدماء ممدودتان وكرسيه يتمايل، لقد دفع القبعة إلى الخلف
من على رأسه وكان يجهد نفسه كي يشعر مثل سائح. تلك
الليلة، وعندما كانت دوريس نائمة تنفّس وترشح بالدفء
قربه، استرد في تلك اللحظة من الحلقة والتعب الجسدي،
العواطف الجياشة التي كانت تتملكه في تلك الأمسية،
وليس منذ أسبوعين عندما اتخذ قراره العظيم. حيث ذهب
قسمه الجليل مثلما ذهب كثير من القرارات السابقة. لقد
انتصر الجنون، وعند أول إثارة للرغبة تراجع. لقد كان بلا
أمل، بلا أمل.

استلقي لفترة طويلة مغمض العينين يتأمل وضاعته. ترك الفتاة يبطء أثناء نومها. استدار ونظر باتجاهها. انسل ضوء باهت بين الستارتين نصف المسدلتين ليُظهر ذراعها العارية وكثفها، رقيتها، وشعرها الأسود المتشابك فوق الوسادة. كانت جميلة وجذابة. لماذا يستلقي هنا نائحاً على خطاياها؟ ماذا يهم؟ إذا كان هو يائساً فليكن هذا، سوف يقوم بفعل الأفضل في يأسه. وفجأة امتلأ بشعور عارم باللامسؤولية. لقد كان حراً، حراً بشكل جميل. وجذب الفتاة بشدة إليه. استيقظت، حائرة ومرتبعة من قبلاته الخشنة.

لقد همدت عاصفة الرغبة هذه لديه وتحولت إلى مرح جليل. وبدا الجو كله يهتز من الضحك الصامت.

- "هل يمكن لأحد أن يحبك مثل حبي لك يا تيدي بير؟".
جاء سؤالها باهتاً وكأنه يأتي من عوالم الحب البعيدة.
أجاب السيد هوتن:

- "أظن أنني أعرف شخصاً يحبني مثل هذا الحب".
كان الضحك الغاطس يعلو ويرتفع مستعداً ليكسر سطح السكون ويدوي.

- "من؟ قل لي. ماذا تعني؟".

جاء صوتها قريباً جداً مشحوناً بالرغبة والألم والسخط،
كان ينتمي إلى العالم الحالي.

- "آه"

- "من؟"

- "لن تحزري".

احتفظ السيد هوتن بالنكته حتى بدأت تصبح مملة، ثم
لفظ الاسم: "جانيت سبنس".

لم تكن دوريس مصدقة. "الآنسة سبنس صاحبة
المزرعة؟" تلك المرأة العجوز؟

كان شيئاً مضحكاً للغاية. ضحك السيد هوتن أيضاً.

- "لكن هذا حقيقي تماماً". تابع السيد هوتن ليقول:

- "إنها تعبدني". أوه هذه النكته الكبيرة، كان سيذهب
لرؤيتها حالما يعود، يراها وينتصر عليها.

- "أظن أنها تريد الزواج مني".

- "لكنك لا تريد... أنت لم تقصد..."

كان الهواء رقيقاً يتفرقع بالدعابة. ضحك السيد هوتن بصوت عال.

- "إنني عازم على الزواج منك". بدت له هذه أفضل نكتة قالها في حياته.

عندما غادر سودند كان رجلاً متزوجاً للمرة الثانية. وقد اتفقا في ذلك الوقت على أن يكون الأمر سرّياً. وسيلدها هو ودوريس في الخريف إلى الخارج معاً. عندها يتوجب عليه إخبار الناس. في غضون ذلك كان عليه أن يذهب إلى منزله ودوريس عليها الذهاب إلى منزلها أيضاً.

في أمسية اليوم التالي لعودته تمشى لمقابلة الأنسة سبنس. فاستقبلته بابتسامتها الجيوكندية المألوفة.
- "كنت متوقعة قدومك"

أجاب السيد هوتن بلباقة: "لم أستطع الغياب أكثر من ذلك".

جلسا في المنزل الصيفي. كان مكاناً بهيجاً - حيث يوجد هيكل جصبي لتعريشة قديمة بين الشجر الكثيف الدائم الخضرة. ولقد تركت الأنسة سبنس لمستها بتعليقها عليها

فوق المقعد لوحة من لوحات من ديلارونيا^(١) الزرقاء والبيضاء.

- "أفكر بالذهاب إلى إيطاليا هذا الخريف" شعر السيد هوتن وكأنه زجاجة من زنجبيل الجمعة جاهزة لتفرقع مع المتعة المرحلة الوهمية.

- "إيطاليا؟" أغلقت عينيها بشكل جذاب: "أشعر بأنني جذبت إلى هناك أيضاً".

- "لماذا لا تنقادي إليها إذن؟"

- "لا أعرف، أحياناً المرء لا يملك القدرة وروح المبادرة لبدء ذلك لوحده".

- "لوحده.. آه"، (أصوات غيتارات وغناء أويرالي)!

- "نعم ليس مسائلاً أن يسافر المرء لوحده".

اتكأت الأنسة سبنس على كرسيها دون كلام. ماتزال

(١) لوكاديلاً روييا: (١٤٠٠ - ١٤٨٢). لوحات إيطالي من فلورنسة أشهر أعماله عبارة عن سلسلة من الملائكة المغنين تدعى "كانتوريا"، صاحب تقنية خاصة في إطفاء مسحة ملونة ومصقولة على القشخار الغير مصقول. م

عينها مغلقتين. لمس السيد هوتن شاريه. أطالت السكينة نفسها فبدأ الوقت طويلاً جداً.

أصبرت عليه كي يحضر على الغداء فلم يرفض. لقد بدأ المزاح الآن. كانت الطاولة موضوعة على اللوج. نظرا من خلال الأقواس عبر الحديقة المائلة إلى التلال والوادي الأبعد. انسحب الضوء بعيداً، الحرارة والهدوء كانا ثقيلي الوطأة. وكانت هناك غيمة كبيرة تتصاعد إلى السماء وكان يسمع من بعيد هزيم رعد. صار الهزيم يقترب أكثر، وبدأت الرياح تهب، وسقطت أولى قطرات المطر. غسلت الطاولة. جلس السيد هوتن والآنسة سينس في العتمة المتزايدة. كسرت الآنسة سينس الصمت حين قالت بتأمل: "أظن أن لكل شخص حقاً في قسط من السعادة. أليس كذلك؟".

- "بكل تأكيد". ولكن إلى ماذا كانت ترمي من ذلك؟ لا أحد يقوم بوضع التعليمات عن الحياة إلا إذا كان يعني الكلام عن نفسه. السعادة؛ التقت بأفكاره إلى الماضي من حياته، رآها حياة مرحة وهادئة لم تعترضها آلام كثيرة أو قلق أو مخاطر. كان ميسوراً دائماً ويملك حرته. كان قادراً على فعل الكثير مما يريد. نعم، كان يظن أنه سعيد، أسعد من

الكثير من الرجال. والآن لم يعد سعيداً فحسب، لقد اكتشف من دون إحساس بالمسؤولية سر الابتهاج. كان على وشك أن يقول شيئاً عن سعادته عندما تابعت الأنسة سبنس حديثها:

- "أشخاص مثلنا أنا وأنت يملكون الحق ليكونوا سعداء أحياناً في حياتهم".

قال السيد هوتن بتعجب: "أنا؟"

- "هنري الطيب! لم يُعامل القدر أحداً منا بشكل جيد".

- "أوه حسناً، ربما عاملني أنا بأسوأ حال".

- "أنت شخصية مرحة. وهذه شجاعة منك. لكن لا

تظن بأنني لا أستطيع رؤية ماخلف القناع".

راحت الأنسة سبنس تتكلم بصوت عالي أكثر فأكثر

بينما يتساقط المطر ثقيلًا بالتدريج. والرعد راح يقطع صوتها

بشكل دوري. تابعت الكلام صارخة لتغلب على الضجة:

- "لقد فهمتك جيداً ومنذ مدة طويلة".

أظهرها البرق تواقعة عازمة، منحنية باتجاهه. كانت عيناها

ماسورتى بندقية عميقة وخطرة. ثم ابتلعها الظلمة ثانية.

- "كنت روحاً وحيدة تبحث عن روح رفيقة. كنت
أعاطف معك بسبب عزلتك، زواجك..."
قطع الرعد الجملة. وأصبح صوت الأنسة سبنس
مسموعاً ثانية مع كلمات:
- "... لا يمكن أن تُوفر رقة لرجل من طابعك، كنت
تحتاج إلى خليلية".
خليلية ا.. هوا.. خليلية!.. كم كان ذلك غريباً إلى حد
لا يصدق.
- "جورجيت لبلانك، الخليلية السابقة لموريس ماترلينك".
وجد ذلك على ورقة منذ عدة أيام خلت. إذن هكذا رسمته
جانيت سبنس في خيالها - كخليل. أما بالنسبة إلى دوريس
فقد كان آية في الطيبة ومثالاً للرجل المتوقد في العالم.
وبالفعل، حقاً، كان ماذا؟ من يدري؟
- "قلبي مال إليك. أستطيع أن أفهم، لأنني وحيدة أيضاً"
وضعت الأنسة سبنس يدها على ركبتيها.
- "كنت صبوراً جداً". برق آخر. كانت مائزال عازمة،
بشكل خطر.

- "إنك لم تشك أبداً. لكنني خمنت... أستطيع التخمين".

- "يا لروعة ما بدر منك!" كان هكذا:

"(1) "âme incomprise"

- "حس امرأة فقط.."

هزيم رعد مرة أخرى، يختفي، ولم يبق سوى صوت المطر. ضحكه كان رعداً، مجلجلاً وجلياً. لمع ودوي، تكرر ذلك ثانية فوقهما من جهة اليمين.

- "ألا تشعر بأنك تحوي شيئاً ما في نفسك مماثل لتلك العاصفة؟"

أمكنه تصورها تنحني إلى الأمام وهي تلفظ تلك الكلمات.

- "العاطفة تجعل المرء مماثلاً للعناصر".

بماذا سيستهل الكلام الآن؟ لماذا، وبشكل واضح كان عليه أن يقول: "نعم"، ويجازف بهذه الإيماء الواضحة.

(1) "روحاً صعبة الفهم" م.

لكن السيد هوتن استلبه الخوف فجأة. بيرة الزنجبيل هذه أصبحت بلا نكهة. المرأة كانت جدية - جدية بشكل مرعب. لقد كان خائفاً. ٤

العاطفة؟ "لا"، أجاب بشكل يائس:

- "أنا من دون عواطف".

لكن هذا التعليق إما أنه لم يُسمع أو أنه لم يُقابل باهتمام، لأن الأنسة سبنس تابعت من شعور متصاعد بالأهمية، تتكلم بسرعة كبيرة، وفي مثل هذا الهمس الحميمي المتقد حيث وجد السيد هوتن أنه من الصعب التمييز فيما كانت تقول. كانت تخبره بقدر ما كان يستطيع أن يفهم - قصة حياتها. أصبح اللمع أقل الآن. وكانت هناك فترات فاصلة طويلة من العتمة. لكن ومع كل لمعة كان يراها ماتزال ماثلة باتجاهه، ماتزال تندفع للأمام بقوة مرعية. الظلمة، المطر، ثم لمعة وجهها كان هناك، مقدار ذراع. قناع شاحب أبيض مخضر، العينان الواسعتان، فتحة الفم الضيقة، الحواجب الكثيفة. أغريينا أو لم تكن هي إلى حد ما - جورج روبي؟ بدأ يدبر خططاً عابثة للنجاة. ربما يقفز فجأة مدعياً أنه قد رأى لصاً - توقف أيها اللص! توقف أيها اللص!

ثم يندفع بقوة للحاق به. أو أن يقول بأنه قد شعر بأن رأسه تدور، أو أنه يشعر بنوبة قلبية، أو أنه قد رأى شبحاً - شبح إميلي - في الحديقة؟ ويما هو منهمك في حيكاته الطفولية، توقف اهتمامه بكلماتها. لكن قبضة يدها التشنجية تعيده إلى أفكاره. كانت تقول: "أحترمك من أجل ذلك ياهنري". تحترمه من أجل ماذا؟

- "الزواج عبارة عن قيد مقدس، واحترامك له - حتى ولو كان الزواج، كما هو في حالتك، غير سعيد - يجعلني أحترمك وأقدرك، و - أيمكنني أن أجرؤ على قول كلمة؟" أوه اللص، الشبح في الحديقة! لكن الوقت قد تأخر. - "... نعم، أحبك ياهنري! أكثر من أي شيء. إننا أحرار الآن، ياهنري".

- "أحرار؟ كانت هناك حركة خفية في الظلمة، وكانت تنحني على الأرضية أمام كرسيه.

- "أوه، هنري، هنري، لم أكن سعيدة أيضاً"

عانقته يداها، ومع هزة جسدها أمكنه الشعور بها تنشج. ربما كانت تبكي بتوسل لكي تنال الشفقة.

- "لا يجوز يا جانيت" تمتع قليلاً. تلك الدمعات كانت مروعة. مروعة.

- "ليس الآن، ليس الآن! يجب أن تكوني هادئة، يجب أن تذهبي إلى الفراش"

ربت على كتفها، ثم نهض محرراً نفسه من عناقها. تركها جائمة على الأرضية قرب الكرسي الذي كان يجلس عليه.

تلمس طريقه إلى البهو، ومن دون انتظار ليبحت عن قبعته، خرج من المنزل، باذلاً جهداً عظيماً لإغلاق الباب الأمامي خلفه من دون أن يحدث صوتاً. تلاشت السحب، والقمر كان يشع من سماء صافية. والبرك كانت منتشرة على طول الطريق، وصوت ماء جار يصدر من المزاريب والحنادق. شق السيد هوتن طريقه في الماء غير عابئ بالبلل.

كيف نشجت مقطعة القلب! مع مشاعر الشفقة والندامة. كل هذا قد حرض في نفسه شعوراً بالامتعاض: لماذا لم تستطع أن تلعب اللعبة التي كان يلعبها هو، اللعبة المسلية الجبائنة؟ نعم، ولكنه كان يعلم طوال الوقت أنها لن

تفعل، فهي لا تقدر أن تقوم بتلك اللعبة، لقد علم واستمر.
ماذا قالت عن العاطفة والعناصر؟ شيء مبتذل سخيف
لكنه حقيقي، حقيقي. كانت هناك غيمة قلبها أسود
ومشحونة بالبرق، وهو، مثل بنيامين فرانكلين الصغير، قد قاد
طائرة ورقية إلى قلب الخطر. والآن يشكو من أن لعبته قد
جلبت البرق.

من المحتمل أنها ماتزال تجثم قرب الكرسي في الشرفة
الصيفية، تبكي. لكن لماذا لم يكن قادراً على الاستمرار في
اللعبة؟ لماذا هجرته اللامسؤولية، تاركة إياه وقوراً فجأة في
عالم بارد؟ لم تكن هناك أية أجوبة لاستفساراته، فكرة
واحدة تتقد بثبات وبشكل واضح في مخيلته ألا وهي
الهروب. يجب أن يرحل حالاً.

- "بماذا تفكر يا تبدي بير؟"

- "لا شيء"

عم صمت وبقي السيد هوتن بلا حركة، حاجبان
مركزان على متراس المصطبة، ذقنه بين يديه، ينظر إلى
فلورنسه. لقد اشترى فيلا على إحدى قمم التلال في جنوب

البلدة. ومن مصطبة مرتفعة قليلاً على طرف الحديقة يمكنك رؤية واد خصب طويل مطل على المدينة وخلفه الكتلة الجرداء من مونت موريللو وشرقه باتجاه هضبة فيزول المسكونة، والمنقطة بالبيوت البيضاء، كل شيء كان واضحاً ومضاء تحت شمس أيلول.

- "هل أنت قلق بشأن شيء ما؟"

- "لا شكراً لك"

- "أخبرني ياتيدي بير"

- "لكن يا عزيزتي لا يوجد ما أخبرك به". استدار السيد هوتن وابتسم، ثم ربت على يد الفتاة.

- "أظن أنه من الأفضل لك أن ندخلي وترتاحي فترة القيلولة، فالطقس حار عليك هنا"

- "لا بأس ياتيدي بير، هل أنت أيضاً آت؟"

- "حالماً أنه سيجاري"

- "حسناً أنهه بسرعة ياتيدي بير"

بيطاء وعلى مضض، صعدت درجات المصطبة ومشت باتجاه المنزل. تابع السيد هوتن تأمله بفلورنس. كان في

حاجة لكي يبقى وحيداً. أحياناً لا بأس أن يهرب من دوريس وعاطفتها الغامرة تجاهه. لم يعرف أبداً آلام الحب بلا أمل، لكنه قد جرب الآن آلام كونه محبوب. كانت الأسابيع الأخيرة هذه فترة تصاعد القلق. دوريس دائماً معه، كقطعة من ممتلكاته، وكشاعر بالاثم. نعم، لا بأس أن يبقى المرء لوحده. سحب مغلفاً من جيبه، وفتحه، بقليل من الثفور. إنه بكرة الاسائل، فهي دائماً تحتوي أشياء غير سارة، وخصوصاً هذه الأيام، منذ زواجه الثاني.

كانت هذه الرسالة من أخته. بدأ يتصفح من خلال الشتائم التي كانت تتجمع فراحت تظهر له كلمات على الدوام مثل: "لهو غير لائق"، "انتحار جماعي"، "باردة في قبرها"، "شخص من الملهمات الدنيا"... إلخ. هذه الكلمات تحتم أنها من قريب يعني مايقول ويفكر بطريقة صحيحة. بنفاذ صبر كان على وشك أن يمزق الرسالة الغبية عندما وقعت عيناه على جملة في أسفل الصفحة الثالثة. وراح قلبه ينبض باضطراب عندما قرأها. لقد كانت فظيعة فجائيت سبنس كانت تجول وتخبر كل شخص بأنه قد سمم زوجته ليتسنى له الزواج من دوريس. أي خبث لعين هذا؟ وعلى

الرغم من أن السيد هوتن هو عادة ذو مزاج هادئ، إلا أنه بدأ يشتاط غيظاً. وراح يشبع رغبة طفولية في الشتم ولعن تلك المرأة.

ثم وفجأة رأى الجانب الساخر من الموقف. حماقة أن يجرم بأحد من أجل الزواج من دوريس! لو أنهم فقط يعرفون كم كان ضجراً وبائساً. عزيزتي جانيت البائسة! لقد حاولت أن تكوني ماهرة، فنجحت في أن تكوني غبية فقط.

تنبه لصوت وقع أقدام، نظر حوله. في الحديقة خلف المصطبة الصغيرة كانت خادمة المنزل تلتقط الثمار. نيوبوليتانية تائهة، مختلفة نوعاً ما عن سكان الشمال وعن الفلورنسيين، لقد كانت عينة من نموذج كلاسيكي منحط قليلاً. صورة وجهها من الجانب كأنه مأخوذ عن عملة صقلانية في فترة رديئة. ملامحها منحوتة بشكل مقيم مر التراث الجليل، يعبر في أكثر الأحيان عن غباء مطلق. فمها أجمل شيء فيها، قد حنته يد الطبيعة الخطاطة بامانة ليعبر عن مزاج عنيد سيء. خلف ثيابها السوداء البشعة تكهن السيد هوتن بجسد قوي، مكنتز وكبير. لقد نظر إليها

من قبل باهتمام غامض وفضولي واليوم فإن الفضول قد
جدد نفسه وركزها إلى رغبة. أنشودة لثيوكريتس.

كانت المرأة هنا، وهو - ياحسرة - لم يكن يشبه بدقة
راعياً على الهضاب البركانية ثم ناداها: "أرميدا"

كانت الابتسامة التي أجابته بها مثيرة جداً، تشهد
وبساطة على قوة، أخافت السيد هوتن. لقد كان مرة أخرى
على الحافة - الحافة. يجب أن يرتد إلى الخلف، أوه، بسرعة،
بسرعة قبل أن يفوت الأوان. تابعت الفتاة النظر إليه.

سألته أخيراً: "ها، شياماتو؟"

الحماقة أم التعقل؟ أوه، ليس هناك خيار الآن. الحماقة
كانت موجودة كل الوقت.

- "سيندر". ناداها مرة أخرى. اثنتا عشرة درجة تقود من
الحديقة إلى المصطبة. عدها السيد هوتن، أسفل، أسفل،
أسفل،...

ورأى نفسه أنه ينزل من دائرة الجحيم إلى الأخرى، من
الظلمة المليئة بالرياح والبرد إلى هاوية من الطين النتن.
بعد عدة أيام أخذت قضية السيد هوتن حيزاً في

الصفحات الأولى للجرائد فمنذ أن أغرق جورج سميث
إبان الحرب الأوربية عروسه في الماء الدافئ لم تشهد البلاد
محاكمة شعبية لجرّمة. لقد أثارت تلك القصة الخيال الشعبي
عن جريمة تعود إلى الأضواء بعد أشهر من زمن الجريمة. وهنا
يوجد واحد من تلك الأحداث للحياة اليومية البارزة لأنها
نادرة جداً وهي تسوُّغ يلا ريب طرائق الرب مع الانسان.
الانسان الشرير قد قادته عواطفه المجرمة كي يقتل زوجته.
عاش بالاثم والذنب المتخيل لعنة أشهر، فقط ليقدف آخر
الأمر بشكل مخيف إلى الحفرة التي كان قد أعدها لنفسه.
"الجريمة سوف تنكشف"، وهنا توجد حالة منها. إن قراء
الصحف كانوا في وضع يؤهلهم اتباع كل حركة ليد الرب.
كان الغموض مخيماً، إلا أن الشائعات مستمرة في الجوار،
قام البوليس أخيراً ببدء إجراءاته ثم جاءت إجراءات نبش
الجثة، إجراءات معاينتها، ثم الاستجواب، أدلة الخبراء، ثم
رأي هيئة المحلفين، المحاكمة، ثم الإدانة. ولمرة واحدة قامت
العناية الإلهية بواجبها بشكل واضح وإجمالاً بشكل
مواعظي، كما في الميلودراما. كانت الصحف محقة في
جعل القضية طعام الفكر القياسي طوال الفصل.

لقد كان شعور السيد هوتن عندما استدعي من إيطاليا لأول مرة للمثول أمام العدالة من أجل إعطاء الدليل خلال الاستجواب نوعاً من الشعور بالسخط. كم هو رهيب وفاضح أن يأخذ البوليس مثل هذه الثروة النافهة والحقودة محمل الجلد؟ عندما ينتهي الاستجواب سوف يقيم إدعاء ضد رئيس قسم الشرطة، وسوف يقاضي المرأة سبنس بسبب الافتراء. فُتح الاستجواب؛ الدليل المدهش يكشف عن نفسه. لقد فحص الخبراء الجثة، ووجدوا آثار زرنبيخ، كانوا مؤمنين أن السيدة هوتن قد ماتت بسبب الزرنبيخ.. التسمم بالزرنبيخ.. اميلي ماتت مسمومة بالزرنبيخ؟ بعد ذلك علم السيد هوتن مدهوشاً بوجود مضادات حشرات مزرنة كافية لتسميم جيش في بيوته الزجاجية. أصبح الآن هادئاً فجأة، عندما رأى ذلك: توجد قضية ضده. يراقبها تكبر وتكبر مسحوراً، يراها كأنها نبات استوائي عملاق. كانت تغلفه، تحاصره، لقد ضاع في غابة متشابكة. متى دُس السم؟ اتفق الخبراء على أن كمية السم قد شربت قبل ثماني إلى تسع ساعات قبل حدوث الوفاة. حوالي العشاء؟ نعم حوالي العشاء، استدعيت الخادمة كلارا. لقد طلب منها

السيد هوتن، تذكرت، أن تذهب وتبحث عن الدواء، ولقد تطوع السيد هوتن للذهاب بدلاً منها، لقد ذهب وحده. الأنسة سبنس - آه، ذكرى العاصفة، الوجه الأبيض، الرعب فيها - أكدت الأنسة سبنس كلام كلارا، ثم أضافت بأن السيد هوتن قد عاد والدواء جاهز مصبوب في كأس خمر، وليس في القنينة.

تلاشى سخط السيد هوتن. لقد كان مرتعباً وخائفاً. وكل ذلك كان خيالياً إذا أخذ على محمل الجد، حتى لو كان هذا الكابوس حقيقة فإنه ما يزال يحدث بالفعل. لقد رآهما مناب يقبلان بعضهما، في بعض الأحيان. لقد أخذهما في جولة يوم موت السيدة هوتن. واستطاع رؤيتهما منعكسين على واية الرياح، وأحياناً بطرف عينه. ثم أجل الاستجواب. في تلك الأمسية قامت دوريس إلى فراشها يؤلمها رأسها. وعندما دخل السيد هوتن إلى غرفتها بعد الغداء وجدها تبكي.

- "ما الأمر؟" جلس على حافة السرير وبدأ يمسد شعرها، لم تجب لمدة طويلة ثم راح يمسد شعرها بتلقائية، وعلى الأغلب من غير وعي، حتى إنه ينحني أحياناً ويقبل كتفها العاري.

لديه فضايه الخاصة ليفكر بها كيفما اتفق. مالذي حدث؟
كيف حدث أن تلك الثروة الغنية قد انقلبت جدياً؟ اميلي
ماتت مسمومة بالزرنيخ؟ قاطعته دوريس في منتصف أفكاره.

- "إنه خطئي، انه خطئي!" فجأة نشجت دوريس.

- "ماكان علي أن أحبك، ولا كان علي أن أدعك
تجنبي. لماذا أتيت إلى الدنيا؟"

لم يقل السيد هوتن أي شيء، نظر فقط إلى الأسفل
صامتاً باتجاه الشكل المذلول البائس المستلقي على الفراش.
- "إذا فعلوا أي شيء لك فسوف أقتل نفسي".

نهضت، أمسكتة لحظة على طول يدها، ونظرت إليه
بنوع من العنف كأنها لن تراه ثانية.

- "أحبك، أحبك، أحبك،" سحبتة إليها، كان خاملاً
وسليماً. عانقته وشدته إليها.

- "لم أكن أعلم أنك أحببتني مثل هذا الحب ياتيدي
بير"!!

فك السيد هوتن معانقتها ومضى. بدا وجهه شديد
الاحمرار.

- "أنت تفترضين أنني قتلت زوجتي؟ هذا غريب جداً.
ماذا تحسّنينني؟ بطل سينما؟"

بدأ يفقد أعصابه. كل السخط، كل المخاوف وحيرة
اليوم قد تحولت إلى غضب عنيف في وجهها: "كل هذا
يشبه غياب ملعوناً. أليس لديك أي تصور عن عقلية الرجل
المتحضر؟ هل أبدو مثل رجل يقوم بذبح الناس؟ أظن أنك
تتخيلينني مخبئاً إلى هذا الحد في حبك حتى أقدم على
اقتراف مثل هذه الحماقة. متى تدركن أيتها النسوة بأن المرء
لا يمكن أن ينخبل بالحب؟ كل ما يطلبه المرء هو الحياة
الهادئة، والتي لن تسمحني لأحد بأن ينعم بها. لا أعرف
مالذي دفعني للزواج منك. كان ذلك حماقة ملعونة أو
مزحة فعلية. والآن تقولين بأنني مجرم. لن أستمّر بذلك".
مشى السيد هوتن بقوة باتجاه الباب. قال أشياء مروعة،
لقد علم أنه قال أشياء كريهة فوجب عليه أن يسحب كلامه
بسرعة. لكنه لن يفعل. وأغلق الباب خلفه.

- "تيدي يير!" أدار المقبض، سقط المزلاج في مكانه.
"تيدي يير" كان الصوت الذي وصل إليه عبر الباب منهكاً.
هل يجب أن يعود؟ يجب أن يرجع. مسك القبضة، ثم

سحب أصابعه وغادر بسرعة. عندما وصل أسفل الدرج في منتصف الطريق توقف. ربما تحاول فعل شيء سخيف - تقذف نفسها من النافذة أو يعلم الله ماذا ستفعل.

أصغى بانتباه، لم يكن هناك أي صوت. لكنه تصورها بدقة، تمشي على رؤوس أصابعها في الغرفة، ترفع الستارة أعلى ما يمكن، تميل إلى الخارج إلى الهواء المسائي البارد. كانت تمطر قليلاً. خلف النافذة تقع المصطبة المرصوفة. كم الارتفاع؟ خمسة وعشرون أم ثلاثون قدماً؟ مرة عندما كان يسير على طول البيكاديللي، قفز كلب من نافذة الدور الثالث للريتز. رآه يسقط، سمع صوت اصطدامه بالرصيف. أيجب عليه العودة؟ من التفاهة أن يفكر بالعودة، لقد كرهها.

جلس في المكتبة لوقت طويل. ماذا حدث؟ مالذي يحدث؟ أعاد السؤال مرات ومرات في ذهنه فلم يجد أي جواب. افترض أن الكابوس قد تحقق وانتهى بشكل مرعب. الموت كان ينتظره. امتلأت عيناه بالدموع، أراد الحياة بحماس شديد: "فقط لأكون حياً". إميلي البائسة قد رغبت بذلك أيضاً. لقد تذكر: "فقط أن أبقى على قيد الحياة".

مايزال الكثير من الأماكن في هذا العالم لم تُزر، لم يزل الكثير من الناس الغرباء المفرحين غير معروفين له، الكثير من النساء اللطيفات لسن كالثواتي رأى قط. إن الثيران الضخمة البيضاء سوف تظل تجر عرباتها على طول الطرق التوسكانية، سيظل السرور متشامخاً مستقيماً كالأعمدة إلى السماء الزرقاء، لكنه لن يكون هناك ليراه. والخمور الجنوبية الطيبة - دموع المسيح ودماء يهوذا - سيشربها آخرون، وليس هو. سينزل الآخرون إلى الأزقة الضيقة المعتمة بين رفوف الكتب في مكتبة لندن، يتنسمون العطر المغبر للأدب الجيد، محدقين إلى العناوين الغريبة، مكتشفين أسماء غير معروفة، مستكشفين أهداب حقول المعرفة الواسعة. وسيكون هو ملقئ في حفرة في باطن الأرض. ولماذا، لماذا؟ شعر بشكل مضطرب أن نوعاً غريباً من العدالة يجري. في الماضي كان مفعماً بالفرح وأبله وغير مسؤول والآن القدر يأخذ دور الفرحة، وعدم المسؤولية، معه. كان ذلك ثأراً "واحدة بواحدة" والرب موجود فوق كل هذا.

شعر وكأن عليه أن يصلي. منذ أربعين سنة خلت اعتاد أن يركع في فراشه كل مساء. هذه الصيغة المسائية لطفولته

جاءت إليه على الأغلب دون جهد عبر حجرة مغلقة طويلة
في الذاكرة. "ربي بارك أبي وأمي، ونوم وكاسي والطفل،
الآنسة والمربية وكل من أحب واجعلني صبياً صالحاً، آمين".
إنهم أموات كلهم الآن ماعدا كاسي. بلدا مزاجه يلين ويهدأ،
هدوء عظيم نزل على روحه. صعد إلى الدرج كي يطلب
سماح دوريس. وجدها مستلقية على السرير من طرفه. على
الأرض قربها تقبع عصارة مرهم زرقاء، مشار عليها "غير
صالحة للاستعمال"، وتبدو أنها قد شربت نصفها تقريباً.

- "أنت لم تحني"، كان ذلك كل ما قالته عندما فتحت
عينها لتجده منحنيًا إليها.

وصل الدكتور ليبارد في الوقت المناسب كي يمنع أية
نتائج خطيرة قد تحصل.

- "يجب ألا تفعل ذلك ثانية"، قال هذا حينما لم يكن
السيد هوتن في الغرفة.

سألته دوريس بجرأة: "مالذي يمنعني؟"

نظر إليها الدكتور ليبارد بعينيه الكبيرتين الحزبتين وقال:
"لا يوجد ما يمنعك. فقط نفسك وطفلك. أليس على الأصح

فألاً سيئاً على طفلك، أن لا تسمحى، أن يأتي إلى هذا العالم لأنك تريدن الخروج منه؟"

صمتت دوريس لبعض الوقت. همست: "حسناً، لن أفعل".
جلس السيد هوتن قريباً بقية الليل. أحس بنفسه الآن أنه مجرم بالفعل. أقنع نفسه لبعض الوقت أنه أحب هذه الطفلة الجديرة بالشفقة. نام على كرسىه واستيقظ متعباً وبارداً ليجد نفسه ظمآن كما كان بعد كل انفعال. لم يعد سوى جسد حي تعب يتألم. في السادسة نزع ثيابه وذهب لينام ساعتين.
في غضون تلك الأمسية نفسها أعلنت هيئة المحلفين رأياً: "جريمة عن عمد" ويحال السيد هوتن إلى المحاكمة.
لم تكن الأنسة سبنس على مايرام إطلاقاً. لقد وجدت أن ظهورها العلني في قفص الشهود أمر شاق جداً. وعندما انتهى كل شيء انتابها شعور يشبه الانهيار. نامت بشكل سيء وعانت من عسر هضم عصيب. واعتاد الدكتور ليبارد على أن يطلب كل عدة أيام. تكلمت معه وغالباً ماكان حديثها عن قضية هوتن. كان استياؤها المعنوي دائماً ينفجر بحالة من الغضب. أليس مربعاً التفكير أن المرء قد استضاف مجرماً في منزله؟ أليس من غير الطبيعي أن يكون المرء ولفترة طويلة قد

أعطى كثيراً حول شخصية رجل ما؟ (لكنها كانت تملك معرفة طفيفة به منذ البداية). ومن ثم الفتاة التي هرب معها - من طبقة وضيفة جداً، أفضل قليلاً من عاهرة. وما يثيرها أيضاً بأن السيدة هوتن الثانية تنتظر مولوداً، يولد بعد موت أبيه المجرم والمدان؛ كم كان هذا الأمر فاحشاً ومثيراً للاشمئزاز.

أجابها الدكتور ليبارد بلطف وبشكل مبهم، وطلب منها استعمال وصفة.

في أحد الصباحات قاطعها في منتصف خطبتها المسهبة العنيفة الاعتيادية.

- "بالمناسبة" قالها بصوته الناعم الحزين. "لأنني أعتقد بأنك حقاً من ستم السيدة هوتن".

حدقت الأنسة سبنس إليه لبضع ثوان بعينين هائلتين، ثم قالت بهدوء: "نعم" ثم بدأت بالبكاء.

- "بالقهوة على ما أعتقد". بدت منكسة رأسها موافقة.

تناول الدكتور ليبارد قلم الحبر، وبقلمه الناعم والدقيق كتب وصفة، كانت عبارة عن عقار مُنوم.

تمت

"...أثارت نظارة جانيت سينس في نفسه فضولاً لا ينضب. لم يكن رومانسياً بما فيه الكفاية ليتخيل بأن كل وجه يخفي أسراراً داخلية من الجمال أو الغرابة، حيث إن لغو كل امرأة يشبه بخاراً معلقاً فوق خلجان غامضة.

زوجته مثلاً، ودوريس! كم تكونا أكثر مما تبديان. أما جانيت سينس فالأمر مختلف نوعاً ما. فهنا يمكن أن يتأكد من وجود نوع من الوجوه الغريبة خلف ابتسامة الجيو كندا والحواجب الرومانية. السؤال الوحيد كان: "ماذا كان ذلك بالضبط؟" هذا ما لم يستطع السيد هوتن أن يكتشفه أبداً..."